من تراب الطريق (٤٥٠)

الإيمان والدافع الإيماني(*) ودور العقل

يجب ألا ننسى أن عواطفنا ـ حتى الآن ـ تعيش أكثر ما تعيش على ميلنا الذى يكاد يكون فطريا إلى الإيمان المريح ، وهو دائما مبنى على الاعتقادات ووجهات نظر دينية أو أخلاقية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية أو أسرية .

وهذا الإيمان بشىءٍ ما لا تخلو منه نفس بشرية ، والذى يصعب على كل منا تركه ، يعطينا راحة التسليم والكف عن الانشغال والقلق لأمر من أمورنا موجودٍ فعلا أو توهما . وهذه الراحة تساوى عندنا وتزيد على العناء الذى نكابده فى استمرار البحث والتحقيق والتمحيص العقلى .. فهو من هذه الزاوية ينقذنا من حيرة العقل وشكوكه وتمرده على الغيب الذى يجتاحنا .. وهو أيضا سهل الانتشار واجتذاب المرافقين والأنصار والأتباع ، وتوفير المحيط أو البيئة التى تفسح لنا مجال الحركة الميسرة الموالية والمواتية ، ويعطينا فرصًا طيبة للإنشاء والبناء إنْ أردنا ذلك بعزم .. كما قد يعطينا فرصًا متسعة للهدم والتخريب والتدمير فى تيارات الأحقاد والعداوات والفتن التى تجرى وتشتد فى محيطنا !!

وللإيمان دوره فى وجود الحضارة الحالية كما كان له دوره فى كل حضارة سابقة وللاعتقاد فى العقائد الملبوسة دور فى الفتن والقلاقل والحروب فى قرننا الحالى والقرن الماضى ، كما كان فى كل القرون السابقة .. لأننا بالغين ما بلغنا من المعرفة والفهم والتطور والرقى ، لم نتخل عن الانصياع للعواطف والانزلاق فى تياراتها إيجابا وسلبا .

(*) المال ٢٥/ ٥/ ٢٠١٠ .

ويدين تقدمنا وترقينا وتطورنا بالكثير للإيمان الصادق الصحيح الذى يدفعنا إلى المثابرة والإصرار على العمل والإتقان ، والرضا ببذل الجهود وأحيانا بالمخاطرة بالحياة نفسها وببذلها .

فالإصرار والمثابرة على العمل الجاد فيهما دائما ووراءهما ، دافع إيمانى بشىء قد لا نعيه ، لكنه موجود وباق يؤدى مهمته فى صمت وبلا ضجيج . قد نفخر بنتائج أعمالنا وبما كلفتنا من عناء ومشقة ، لكن لا نتذكر القوة الداخلية الدافعة وراء رضانا بهذه المكاره . هذه القوة الدافقة هى إيماننا العميق بشىء معين اعتنقناه وأطعناه بلا أى تردد أو مناقشة .

وتصعيد الإيمان بهذا الشىء المعين ، إن جاز التعبير ، إلى الخالق ـ جل وعلا ـ خطوة ترقٍّ .. ليس فقط فى إنجاز هذا أو ذاك من أعمالنا ، وإنما فى غاياتنا وأغراضنا ومقاصدنا من تلك الأعمال ، وفى ألا يشذ من أغراضنا ومقاصدنا هذه غرضٌ أو مقصد إلى شر خاص أو عام نندم من أجله على ما أتيناه ونفذناه أو شرعنا فى تنفيذه فى سبيله !

وتعلقنا بالقيم العامة التى لا تخلو من ذكرها مناسبة ، وهى قيم بشرية أكثر بكثير من حيث العدد والأهمية من تعلق آبائنا وأجدادنا الذين لم يعرفوا الكثير منها .. وهذا التعلق ضرب من الإيمان ، يحفزنا ويقود كلا منا فى موقفٍ ما إلى موقف معين أو تصرف من التصرفات ، وذلك دون أن نعرف بالدقة ما هى فحوى هذه القيمة ، مكتفين بأن نعرف مفهومها العام وإن كان غامضا مبهما غير محدد ، ودون أن نحتاج أو نشعر بالاحتياج إلى إزالة هذا الغموض والإبهام وعدم التحديد . لماذا ؟! .. لأننا فى صدد إيمان لا فى صدد واقع يفتقر إلى معرفة كاملة لشىء معين !

من منا يفكر فى ماهية الوطنية والعدالة والعدالة الاجتماعية ، أو فى تحديد معنى حقوق الإنسان أو الحرية الشخصية أو حق الجمهور فى المعرفة بالشئون العامة ، أو حقه فى التعليم ، أو الحق فى الحصول على مستوى كاف ولائق لحرياته كآدمى ، أو فى مدلول الحق فى المساواة وفى الديمقراطية ، أو مدلول الاشتراكية أو مشروعية الملكية الفردية ، أو كفالة حرية التنقل ، وحرية التعبير عن الرأى ، أو فى حرية التجارة وحرية الهجرة ، أو فى حرية الاعتقاد واختيار وممارسة شعائر وطقوس الملة أو المذهب أو الدين إلى غير ذلك مما يعتبره الناس من القيم الأساسية فى حياة الأفراد والشعوب .

كل هذه إيمانيات نعيش بها وعليها .. لا يعلل إيماننا بها وانتماؤنا إليها واعتمادنا عليها وامتثالنا لها ، لا يعلل ما يحيط بها من غموض وإبهام وعدم تحديد . هذه الغوامض أو المبهمات أو التجريدات التى تفسح المجال للخلط وما نسميه إساءة الفهم والتأويل وحدة الاختلاف والتعصب والخصومات والفتن والحروب وما وراءها من أغراض ومقاصد معظمها عند التأمل ـ إيمان اعتقادى .. دور العقل والتعقل فيه محدود محصور فى كيفية التنفيذ إن سمح لهما به !

فالصلات البشرية خاصة وعامة ، القائمة على القيم البشرية ، ذات أساس إيمانى مستحكم معرض فى كل وقت ، لذلك الخلط وإساءة الفهم والتأويل والاختلاف والتعصب ، ومصير تلك الصلات دائما فى كف الاحتمالات وتحت تصرف المقادير التى يتجاهلها الناس عادة ، ويفاجأون منها بما لا يتوقعون !

هذه ظاهرة مشتركة متفقة مع أصول حياة الأحياء جميعا ، هذه الحياة التى يدخلها البشر وغير البشر تسللا ويخرجون منها قسرا بلا مشيئة ولا مدخل لعقولهم وتعقلهم فى ذلك الدخول أو الخروج ، وهما ـ الدخول والخروج ـ طرف كل حياة على هذه الأرض !

ويبدو أن ظهور عقل الآدمى ـ أى آدمى ـ يحتاج إلى خارج وإلى تعامل مع هذا الخارج ، وبقدر اتساع هذا التعامل يتسع بنموه نمو المخ ونمو العقل .. هذا النمو يحصل فى وصاية الغرائز والعواطف والذاكرة ، وربما فى وصاية نمو ذات الآدمى بصفة خاصة !

هذا هو الذى يفسر خضوع عقولنا لذواتنا ، ومطالبها وغرائزها وعواطفها ومتوارثاتها ، ويتوقف تقدم العقل وتطوره على تحرك هذه الوصايات الفطرية ـ هى الأخرى ـ فى طريق التطوير والترقى برغم ما تحمله من ماضيها الطويل وضعف قدرتها على التفطن والتبصر وحاجتها الدائمة إلى ما يعينها على هذا الضعف .. خاصة إذا لوحظ أن استعداداتنا العقلية والشعورية وذاكرتنا ومخيلتنا لا تعمل معا دائما ، بل تتسابق إلى العمل لوقت يقصر أو يطول تنتظر بعده ناتج عمل كل منها ، هذا الناتج الذى قد يكون حصاد هذا أو ذاك من هذه الاستعدادات ، أو نتاج عون كل منها للآخر فى إنجازه أو فى وجوده أو فى الدفاع عن مواقفه . والتماس الأعـذار له . قد تعزو إمكانيات القوة إخفاق عملها إلى قلة أو نفـاد الصبر مثلا ، أو تعزو المخيلة تعثرها إلى تواضع الذاكرة .. وهكذا !

*****